﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بـيـانُ أسـبـابِ الإصـــرارِ على الـكُـفـرِ مُـعـيـنٌ على فهْمِ السُّننِ الهِدائيَّةِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ إصرارَ المعانِدين منَ المشركين على الكفرِ، ورفضِ الإيمانِ بعد مَجيءِ الخوارقِ الّتي طلبُوها، حسُنَ التَّنبيهُ في هذه الآيةِ إلى سببِ ذلك الإصرارِ والعنادِ، فذكر أصالةَ العداوةِ بين أولياءِ الرَّحمنِ وأتباعِ الشَّيطانِ، وبيَّن العلاقةَ بين شياطينِ الإنسِ والجنِّ، وما يوحيه بعضُهم إلى بعضِهم الآخرِ منَ الإغراءِ بالشَّهواتِ، واتِّباعِ الأهواءِ.

فَبَينَ الآيتين تناسُبٌ في كوْنِ المُنكرين هُم شياطينُ الإنس والجنّ الّذين نصَّت عليهم هذه الآيةُ، وهُو زُخرُفٌ منَ القول، وصفَه بأنّه محضُ غُرورٍ، وتأثيرُه مُتعلِّقٌ بمشيئة اللّه وُقوعًا وعدَمًا، وهو ما أكّدتْه الآيةُ السَّابقةُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدُوّٗا﴾: العدُوُّ ضِدُّ الوَليِّ، والجَمعُ أَعداءٌ، وأَصْلُهُ التّجاوزُ ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتبرُ بالقلبِ، فيُقال له: العَداوَةُ والمُعادَاةُ، وتارةً بالمشي، فيُقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيُقال له: العُدوَانُ والعَدوُ. والعَدُوُّ: يندرجُ تحت اسمِ الجَمع، وهو ما يستوي في دلالته على المعنى المفرد والجمع، دون تغييرٍ في صورته الّتي وُجِدَ عليها في اللّغة، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المُنافقون: 4][1].

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (عدو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.

2) ﴿شَيَٰطِينَ﴾: الشَّيطانُ النّونُ فيه أصليّةٌ، وهو من: شَطَنَ؛ أي: تباعدَ، ومنه: بئرٌ شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدّار، وغربةٌ شَطُونٌ، وقيل: بلِ النّونُ فيه زائدةٌ، من: شَاطَ يَشِيطُ: احترقَ غضبًا، فَالشَّيطانُ مخلوقٌ منَ النّار، كما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرّحمن: 15]، ولكونِه من ذلك اختُصَّ بفرطِ القوّةِ الغضَبيّةِ والحميّةِ الذّميمةِ، وامتنعَ منَ السّجودِ لآدمَ، قال أبو عبيدةَ: "الشّيطانُ اسمٌ لكلِّ عارمٍ منَ الجنّ والإنس والحيواناتِ"[1]، ومفردُ الشّياطين: شيطانٌ، وأصلُه نوعٌ منَ الموجوداتِ المُجرّدةِ الخفيّةِ، وهو من جنس الجنِّ، ويُطلَقُ الشّيطانُ على المُضلِّ الّذي يفعلُ الخبائثَ منَ النّاس، على وجهِ المجازِ، وشاعَ ذلك في كلام العربِ[2].

3) ﴿يُوحِي﴾: جذرُ الكلمة هو (وحى) منَ الوحْيِ، وأصلُه الكِتابَةُ في الحِجارَة، والوَحيُ أيضًا: الإشارةُ، والرّسالةُ، والإلهامُ، والكلامُ الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك، يُقال: وَحَيتُ إليه الكلامَ وأوحَيتُ، وهو أن تُكلِّمَه بكلامٍ تُخفيه، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتّى علمَه، فهُو وحيٌّ كيف كان، والوحيُ: السّريعُ، والوحيُ: الصّوتُ، ويجمعُ معنى الوحْيِ: أنّه إعلامٌ في خفاءٍ[3].

4) ﴿زُخۡرُفَ﴾: جذرُ الفعل الرّباعي هو (زخرف)؛ الزُّخرُفُ: الزّينةُ، زخرفتُ البيتَ إذا نَجَّدْتَهُ، وزخرفتُ الكلامَ إذا أَلَّفْتَهُ، وزُخرُفُ القَول؛ أي: حُسنُ القول بترقيشِ الكذبِ.

وإضافةُ الزُّخرفِ إلى القول من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوف؛ أي: القولُ الزُّخرُفُ؛ أي: المُزَخرَفُ؛ المحتاجُ إلى التّحسين والزّخرفَةِ، وإنّما يحتاجُ القولُ إلى ذلك إذا كان غيرَ مُشتمِلٍ على ما يُكسبُهُ القبولَ في حدّ ذاتِه، وذلك أنّه كان يُفضي إلى ضُرٍّ يحتاجُ قائلُهُ إلى تزيينِه وتحسينِه لإخفاءِ ذلك، خشيةَ أنْ يَنفرَ عنهُ منْ يُسوِّلُهُ لهُم، فذلك التّزيينُ ترويجٌ يستهوُونَ به النّفُوسَ، كما تُموِّهُ للصِّبيان اللُّعبَ بالألوان والتّذهيبِ[4].

5) ﴿غُرُورٗاۚ﴾: جذرُ الكلمة هو (غرر)؛ الغُرُورُ بالضّمّ: ما اغتُرَّ به من متاع الدُّنيا،

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/32.
(2) الرّاغب، المفردات: (شطن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زخرف)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10.

والغُرُور: الأَباطِيلُ[1]، والغُرورُ: الخِداعُ والإطماعُ بالنّفع لقصْدِ الإضرار، ومعنى قولِه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾؛ أي: يُوحُون زُخرفَ القولِ ليَغُرّوهم.

6) ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: جذرُ الكلمة هو (وَذَرَ): فعلٌ ماضٍ، لا يُستعمَلُ منهُ سوى المُضارع والأمر، يَذَرُ، ذَرْ، وَذْرًا، وَيُقال: وَذَرَ عَمَلَهُ: تركَه، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدّثر: 28]، وقال: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]؛ بمعنى أمهلْهُم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى مسلِّيًا نبيَّه محمّدًا ﷺ عمّا يلقاه من كفَرةِ قَوْمِه، ممّن تبجّحَ باقتراح الآياتِ التّعجيزيّةِ؛ رجاء الصّبرِ على ما ناله: كما ابتليناك، بأن جعلْنا لك من مُشركِي قومِك أعداءً، يُشبهون الشّياطينَ الّذين يُوحِي بعضُهم إلى بعض القولَ الّذي زيَّنوه بالباطل؛ ليغترَّ به سامعُه؛ ليصُدُّوهم بمجادلتِهم إيّاك عنِ اتّباعك والإيمانِ بك، والإقرارِ بما جئتَهُم به من عند ربِّك، على نحوِ ما ابتليْنا به مَن قبْلَك منَ الأنبياء والرّسل، بأنْ جعلْنا لهُم أعداءً من قومهم، يُؤذُونهم بالجدالِ والخُصوماتِ[3]؛ لتنالَ بالصّبر عظيمَ الثّوابِ، وجزيلَ الأجرِ، لتتأسَّى بمَن سبقَكَ منَ الأنبياء[4]، وقد بيّنتِ الآيةُ التّدافعَ الحاصلَ بين الإنس والجنِّ، ودورَ الشّياطين في الإغراء والتّزيين، فبيّن سُبحانَه لنبيّه ﷺ؛ أنّه لا مندُوحةَ منَ الأعداء، ولا مفرَّ منَ الصّراع بين الحقّ والباطلِ، ولكنَّ مشيئةَ اللّه سُبحانَه غالبةٌ، فلا خوفَ من تلك الافتراءاتِ المُزجاة، والأباطيلِ

ابتلاءُ الأنبياءِ بأقوامِهم سنّةٌ كونيّةٌ وقدوةٌ نبويّةٌ يتأسّى بها الدّعاةُ والمصلحون

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (غرر).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وذر)، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/583.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/50.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/209، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/334.

المُفتراة، ولكنّه الابتلاءُ منَ اللّه، فاطمئِنْ، ودَعْهم وما يختلقون مِن كذبٍ وزورٍ.

وتُرشدُ الآيةُ إلى تسليةِ وإيناسِ أمّته ﷺ من بعده، فقد يُصيبُهم بعضُ ما أصابه منَ التّكذيب والإيذاء، ممّا يتكرّرُ على مدَى الدّهرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تسليةُ الرّسولِ ﷺ وأتْباعِه، إثباتٌ للعقولِ وتثبيتٌ للأعمال

في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الواو اعتراضيّةٌ، والجملةُ اعتراضٌ؛ وهو من أنواع الإطنابِ، وهي بمنزلة الفَذْلَكة - المبيِّنةِ لمجملِ ما فُصِّل وخلاصتِه -، قُصدَ منها تسليةُ الرّسولِ ﷺ؛ بعد ذكرِ ما يُحزنُه من أحوال كفّار قومِه، وإصرارِهم على نبْذِ دعوتِه، فأنبأه اللّه: بأنّ هؤلاءِ هم أعداؤُه، وأنَّ عداوةَ أمثالِهم سُنّةٌ من سُنَنِ اللّهِ تعالى في ابتلاء كلِّ نبيٍّ، فما منهم أحدٌ إلّا كان له أعداءٌ، ومعنى الكلام: ألستَ نبيًّا؟ وقد جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدُوًّا[1].

معنى الكافِ الدّاخِلةِ على اسمِ الإشارَةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تشابهُ الأسبابِ يورِّثُ تشابهَ النّتائجِ

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركّبٌ من كاف التّشبيه واسمِ الاشارة، والمشبَّهُ به ظاهرٌ مُشارٌ إليه، أو هُو كالظّاهر مفهُومًا منَ السّياق[2]؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما فعلنا ذلك كذلك، جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عدُوًّا[3]، ويمكن أن يكونَ للتّشبيه معنيَان؛ **الأوّلُ**: أَنَّهُ مَنسُوقٌ على قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: 108]؛ أي: كما فعلنا ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، **والثّاني**: مَعناهُ جَعَلنَا لَكَ عدُوًّا، كما جَعَلنَا لِمَن قَبلَكَ مِنَ الأنبيَاءِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/16.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 5/115.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/119.

بلاغةُ التَّذييلِ المُؤكِّدِ لمعنى الآية الّتي قبلَها

وقد وقعَ قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا﴾ تذييلًا لقولِه في الآية قبلَها: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾، والتّذييلُ للتّوكيد، وهُو غيرُ جارٍ مجرَى المَثَل[1].

نُكتةُ تقديمِ ﴿لِكُلِّ نَبِيّٖ﴾ على ﴿عَدُوّٗا﴾:

الحصرُ الدّالُّ على الاستيعابِ والاهتمامِ بمضمونِ الخطابِ

تقديمُ ﴿لِكُلِّ نَبِيّٖ﴾ على ﴿عَدُوّٗا﴾ أفاد القصرَ المفيدَ للمبالغة[2]، فقصرَ هذا الحُكمَ على الأنبياء، وهو أنَّ لكلّ نبيٍّ – دون استثناء – عدوًّا؛ أي: أعداءً من شياطين الجنّ والإنس، ولِيعلمَ رسولُ الله ﷺ أنّ ما كان من أعدائِه هو أمرٌ مُقدَّرٌ مسبقًا، وقضاءٌ منَ الله تعالى، وسُنّةٌ من سُنن الله مع أنبيائِه.

وأفاد الاهتمامَ به؛ لأنّ في تقديمه تنبيهًا على أنّه خبرٌ، وأنّه ليس مُتعلِّقًا بقوله: (عدوًّا) كيلَا يخالَ السّامعُ أنّ قولَه: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ مفعولٌ؛ لأنّه يحوِّلُ الكلامَ إلى قصدِ الإخبارِ عن أحوال الشَّياطين، أو عن تعيينِ العدوِّ للأنبياء مَن هو؟ وذلك ينافي بلاغةَ الكلام[3]؛ ولأنّ فحوَى السّياقِ ومقصدَه الإعلامُ عن هذه السّنّةِ في الأنبياء كلِّهم، فيحصل بذلك التَّأسِّي والقدوةُ والتّسليةُ.

دلالةُ استِعمالِ اللّامِ الدّاخلةِ على أداةِ العُمومِ في قولِه: ﴿لِكُلِّ نَبِيّٖ﴾:

لكلِّ مرحلةٍ دعَويّةٍ فقهُها الخاصُّ بها، ولكلِّ نبيٍّ عدوُّه الخاصُّ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيّٖ﴾ للاختصاص[4]، وهذا أصلُ معانيها؛ فكأنّه قيلَ: اختصَّ كلَّ نبيٍّ بعدوٍّ؛ فقد جعل اللّهُ لكلّ نبيٍّ عدوًّا مخصوصًا به، وتلك هي سنّةُ الله في أنبيائه مع مَن يُبعثون إليهم مُبلِّغين ناصحين، ففيه أنَّ كلَّ مرحلةٍ لها خصوصيّتُها الدَّعويَّةُ، ولها فقهُها الّذي يخصُّها.

(1) الطّيّبي، فُتوح الغيب: 6/216.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 8/4.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/381.

سرُّ إيثارِ وصْفِ النُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ:

آثرَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا﴾ اختيارَ صِفةِ النُّبوّةِ دون الرِّسالةِ، وذلك أنَّ النَّبيَّ أعمُّ منَ الرَّسول؛ بكونِه أُوحيَ إليه منَ اللّه تعالى بشرعٍ أو بخبرٍ، وأُمرَ بتبليغه للنّاسِ، وبكونِ عددِ الأنبياء - وهو مئةٌ وأربعةٌ وعشرون ألف نبيٍّ - أكثرَ من عدد الرّسلِ الّذي هو ثلاثمئة وثلاثةَ عشرَ رسولًا، وبكونِ دينِ الأنبياء واحدًا، وهو دينُ الإسلام، فكلُّهم دعَوا إلى عبادة اللّه وحدَه وعدمِ الإشراكِ به شَيْئًا، والتّصديقِ بأنبيائه، أمَّا شرائعُ الرّسلِ فمختلفةٌ، فكلُّ رسولٍ جاء بشرعٍ جديدٍ يختصُّ به وبأُمَّته. فالآيةُ تشملُ الرُّسلَ التزامًا، فاختيارُ النُّبوّةِ ليس المرادُ به الخصوصَ، بل العمومَ والشُّمولَ، وهذا من محاسنِ اختيارِ هذه اللَّفظةِ في هذا السِّياق، ويدخلُ في دلالةِ لفظِ ﴿نَبِيّٖ﴾ الدُّعاةُ والعلماءُ باعتبارِهم ورثةَ النَّبيِّين في علْمِهم ومنهجِهم، فدلَّ اللَّفظُ على الشُّمولِ الكلّيِّ لكلِّ مَن يكون داعيًا إلى دين التَّوحيد، ويستحقُّ بذلك أن يكون له أعداءٌ من شياطين الإنسِ والجنِّ.

الشّمولُ الكُلّيُّ لمَن دعا إلى التّوحيدِ فهو مُستحقٌّ لعداوةِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ

بلاغةُ استِعمالِ مفردةِ ﴿عَدُوّٗا﴾ دون ما يقاربُها في اللّفظ:

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿عَدُوّٗا﴾ دون مقارباتِها اللَّفظيّةِ مثل: مُكذِّبًا أو مُبغِضًا أو كاشحًا أو مُخاصِمًا؛ للعموم والقصد الباطنِ والظَّاهر، فإنَّ لفظَ العداوةِ يشملُ البغضَ والكراهيةَ والاعتداءَ والحسدَ والخصومةَ، وكذلك يَدُلُّ على الأعمال القلبيَّةِ الباطنيّةِ والأعمال السُّلوكيّةِ الظَّاهرةِ، فكان إيثارُها دليلًا على تعدُّد مظاهرِها ومسالكِها وأساليبها مع أولياء اللّه تعالى.

العداوةُ تشملُ جميعَ المقاربات، ويدخلُ فيها الظَّاهرُ والباطنُ

بلاغةُ استِعمالِ مُفردةِ ﴿عَدُوّٗا﴾ دونَ أعداء:

قال الزّجّاج وابنُ الأنباريّ: قولُه: ﴿عَدُوّٗا﴾ بمعنى أعداء، ومنها قولُه: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذّاريات: 24]؛ جعلَ المُكرَمين، وهو

جمعٌ، نعتًا للضَّيف، وهو واحدٌ، وثانيها قولُه: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾ [ق: 10]، وثالثُها قولُه: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النّور: 31]، أكّدَ المفردَ بما يُؤكَّدُ الجمعُ به[1]، وسرُّ الاستعمالِ بلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الجمعِ بالمفرد؛ فكأنَّ العداواتِ اجتمعنَ في عدوٍّ واحدٍ، وذلك لبيانِ وحدةِ أعداء الله تعالى، فالكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ.

وحدةُ أعداءِ اللهِ تعالى، فالكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ صادرةٌ عن قلبٍ واحدٍ

سرُّ إفرادِ لفظِ ﴿عَدُوًّا﴾ دونَ جمعِه، ومجيءِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ جمعًا:

استُعملَت صيغةُ الإفراد ﴿عَدُوًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾؛ مع أنّه قصدَ جَمعَ الأعداءِ، وقالَ: ﴿شَيَٰطِينَ﴾ بصيغةِ الجمعِ، ونوّعَهُم فقال: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، وذلك أنَّ جمعَ الشّياطين مع بيانِ نوعِهم المقصودُ به بيانُ العدوّ، فكأنَّه قال: العدوُّ يدخلُ فيه الشَّياطينُ منَ الإنس والجنِّ، فدلَّ الإفرادُ على وحدةِ الغايةِ، ودلَّ الجمعُ على تنوّعِ الأعداءِ.

غايةُ الإفرادِ بيانُ المصدرِ، والجمعُ لبيانِ تنوّعِ الأعداء

معنى إضافةِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾:

إضافةُ لفظِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ إلى الإنس إضافةٌ مجازيّةٌ، على تقدير (مِنْ) التّبعيضيّةِ مجازًا، وعبارةُ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ استعارةٌ للنّاس الّذين يفعلُون فعلَ الشّياطين: من مكرٍ وخديعةٍ؛ أي: أنّ بعضَ الشّياطين هم منَ الإنس، والاستعارةُ المكنيّةُ تقتضي كونَ هؤُلاء الإنس كشياطين الجنّ، فهي بهذا الاعتبارِ، من إضافة الأخصِّ إلى الأعمِّ؛ لأنّ شياطينَ الإنس مجازٌ، وشياطينَ الجنّ حقيقةٌ[2].

شياطينُ الإنسِ كشياطينِ الجنِّ في الأثرِ

دلالةُ التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾:

التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ هو للجنس؛ والتّعريفُ بـ (أل) الجنسيّةِ يفيدُ استحضارَ الجنسِ وهيئتِه المعلومةِ في الذّهن؛

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.

فيُعرفُ أنّه من صفات الأعداءِ أنّهم من نوعِ الإنسِ، وصفاتُهم معروفةٌ، وأنّهم من نوعِ الجنّ، وصفاتُهُم معروفةٌ كذلك؛ لكنّه هُنا أفاد استغراقَ جميعِ خصائصِ الأفرادِ المذمومةِ تجوّزًا؛ مبالغةً في الذّمِّ، والمعنى: الّذين اجتمعَت فيهم صفاتُ الشّيطنةِ منَ الإنس والجنّ ممّا تفرّقَ في غيرِهم.

شياطينُ الإنس والجنّ هم مَنِ اجتمعَتْ فيهم صفاتُ الشَّيطنةِ

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْإِنسِ﴾ على ﴿وَٱلْجِنِّ﴾:

الجنُّ أسبقُ في الخلقِ، وهم أكثرُ في الوسوسةِ، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النّاس: 5 - 6]، ونُكتةُ التّقديمِ هنا ما لشياطين الإنسِ منَ الأثرِ المُباشرِ والأكبرِ في هذه العداوة، إذ إنّ شياطينَ الجنِّ لا تظهرُ عداوتُهم بشكلٍ مادّيٍّ، على خلاف شياطينِ الإنسِ الّذين يتبنّون تلك العداوةَ صراحةً، ثمّ إنّ عداوةَ شياطين الجنِّ لا تأتي إلّا من خلالِ ما يؤدّونَه منَ الأزِّ على قلوبِ شياطينِ الإنسِ وعقولِهم، فتأتي عداوةُ الجنِّ من خلال العدوِّ منَ الإنس.

شياطينُ الإنس هم مَن يُؤدّي الدَّورَ المحوريَّ في الإيحاءِ والإصغاءِ والإيذاءِ

ثمّ إنّ تقديمَ (الإنس) على (الجنّ) في موضوع الشّيطنةِ، تستحقُّ الوقوفَ والتّدبُّرَ؛ لأنّ مادّةَ شياطين الجنّ، وأدواتِهم الّتي يُمارسون من خلالها أعمالَهم، هم الإنسُ أنفسُهم، لذا فقد خصّصَهم التّعبيرُ القرآنيُّ وقدّمَهُم، باعتبارِ أنّهم هُم المُنكرُون المُعارضُون الّذين تتعاملُ معهُم الحواسُّ على خلاف شياطينِ الجنِّ، كما أنّ لشياطين الجنِّ مهمّةً واحدةً، هي الإيحاءُ وزخرفةُ القول غُرورًا، أمّا شياطينُ الإنس فلهم فوق ذلك أعمالٌ، هي أكثرُ وَقعًا وأثرًا في الحياة، فهُمُ المُبادرون المُقترفُون للتّكذيبِ والإنكارِ والإيذاءِ القوليِّ والفعليِّ، وغيرِ ذلك.

عداوةُ شياطينِ الإنس والجنِّ تهدفُ إلى الإضرارِ بقضيّةِ الإيمانِ عمومًا

البديعُ في إيرادِ التّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

في قولِه تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ فبعدَ إجمالِ العداوةِ وتركيزِها في صيغةِ الإفرادِ ﴿عَدُوًّا﴾؛ فَصّلَ في بيانِ جهتِها، فقال: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، ثُمّ زادَ التّفصيلَ

تفصيلًا، مُبيِّنًا طبيعةَ تلك العداوةِ، فقال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ولفظُ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ انتصبَ على البدلِ من ﴿عَدُوًّا﴾، أو على أنّهما مفعُولان، كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: 100]، وقولِه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنّ شياطينَ الجنِّ يُوسوِسُون لشياطين الإنس، وكذلك بعضُ الجنّ إلى بعضٍ، وبعضُ الإنس إلى بعضٍ[1].

بلاغةُ الطّباقِ في قولِه تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾:

الدّلالةُ على الشّمولِ، وأنّ العداوةَ الواقعةَ من كلا الخَلقَين المختلفين طبيعةٌ وصفةٌ

الطّباقُ من أجمل أساليبِ البلاغةِ في القرآن الكريم، فهو يجذبُ انتباهَ السّامع، ويثيرُ فكرَه وإعجابَه، ففي قولِه تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ طباقٌ؛ إذ استخدم كلمتَيْن متقابلتَيْن في المعنى والحروف، فالإنسُ والجنُّ خَلْقانِ مختلفان في الطّبيعةِ والصِّفاتِ، ولكنّ اللّهَ جمعَ بينهما في هذه الآية ليبيِّنَ أنّ لكلِّ نبيٍّ عدوًّا من كلا الخَلقين، يحاربونَه ويضلّون عن سبيله، والطّباقُ بين الكلمتين في الحروف أيضًا، فلفظُ الإنس والجنِّ متقاربان في الصّوت، وهذا الطّباقُ له دلالةُ الشُّمول؛ فقد شملَ الشّياطينَ كلَّهم، الّذين من صفاتهم أنّهم يوسوسُ بعضُهم لبعضٍ فيزيِّنون الباطل.

بلاغةُ اختيارِ مُفردَةِ ﴿يُوحِي﴾:

الوحيُ هو الإعلامُ والدّلالةُ بِسَترٍ وخفاءٍ وسُرعةٍ

اختارتِ الآيةُ لفظَ الوحْيِ في قولِه تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم يقُل: يوسوسُ؛ إذ نلمحُ في سياقِها أنّ أصلَ الوحي: الإعلامُ والدّلالةُ بِسَترٍ وخفاءٍ وسرعةٍ، وفي المُراد به هاهنا **ثلاثةُ أقوال**: أحدُها: أنّ معناه: يأمرُ، والثّاني: يُوسوسُ، والثّالث: يُشيرُ[2]، فهي جميعُها كائنةٌ في معنى الإيحاء، وهي جميعُها ضروريّةٌ لزخرفةِ القولِ وتزيينِه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/68.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿يُوحِي﴾:

المُعانِدون يخترعون الأساليبَ والطّرقَ في غَوايةِ النّاسِ

الفعلُ المضارع في ﴿يُوحِي﴾ يدلُّ على التّجدّدِ والاستمرارِ واختراعِ الأساليبِ والطّرقِ الكثيرةِ في إحداث التّزيين منَ الشّياطينِ لأتباعِهم بالعداوة للأنبياء. وهذه الأفعالُ جميعُها تأتي تِباعًا لـ ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ الّذي هو المادّةُ الرّئيسةُ لتعاملات شياطينِ الإنس والجنّ، فالتّعبيرُ بالمضارعِ يدلُّ على تجدُّدِ الأفعالِ التّابعِ لتجدُّدِ الأساليب، فإن لم يُفلح أسلوبٌ في الغَوايةِ أفلحَ آخرُ.

دلالةُ التّعريفِ والتّنكيرِ للّفظِ الواحدِ في قولِه تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

ناسبَ التّعريفُ المؤثِّرين والتّنكيرُ المتأثِّرين

نلحظُ في قولِه تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ التّنويعَ بالتّعريفِ بالإضافةِ والتّنكيرِ للّفظِ الواحدِ، فلم يقُل على وجه التّنكير: (يوحي بعضٌ إلى بعض)، ولا على وجه التّعريف: (يوحي بعضُهم إلى بعضهم الآخر)، ونُكتةُ ذلك: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ المقصودين بقولِه: ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ هم المؤثِّرون بالإيحاء بالكذب المحسَّن والمزيَّن، وأنَّ المرادين بقولِه: ﴿بَعۡضٖ﴾ هم المتأثِّرون، فحسُنَ التَّعبير بالتَّعريف للمؤثِّر، وبالتَّنكير للمتأثِّر.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في قولِه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

الزّخرفُ هو تزيينُ باطنِ المعنى الخبيثِ بظاهرِ اللّفظِ الجميل

وأمّا قولُه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فهو ما تُزيّنه الشّياطينُ منَ القول والوسوسة، والإغراء بالمعاصي، وتُزيّفه وتُموّهه، فيمكن أن يكونَ الإيحاءُ مقتصرًا على الزّخرف، فيكون من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، أو استعارةً مكنيّةً تخييليّةً على تشبيه القول بالذَّهَب، أو بالبناء الّذي يُزَيَّن؛ لأنّ الزُّخرفَ في لغة العرب الزّينةُ، ومن ذلك قولهم: دارٌ مُزخرفةٌ؛ أي: مُزيَّنةٌ، فكأنّه تعالى قال: يُزيّنون لهُم القول ليغترُّوا به، وينخدعُوا بظاهره، كما يُستغرُّ بظاهرٍ جميلٍ، على باطنٍ مدخُولٍ[1].

(1) الرّضّي، تلخيص البيان: 2/138.

البلاغةُ اللّسانيّةُ قـد تـقـودُ إلى الـهـلاكِ إن لم يَحكمْها النَّقلُ والعقلُ

بلاغةُ النّظمِ في قولِه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ وصفٌ للقول الّذي هُو مادّةُ التّواصل، بين عالَمين مُنعزلَيْن تمامًا، هُما عالَما الإنس والجنّ، والجامعُ بينهما الشّيطنةُ والتّمرُّدُ والعداوةُ للحقِّ، فالآيةُ الكريمةُ تُبيّنُ أنّ سببًا للتّواصلِ بين العالمين، يكونُ من خلال ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ لكنّه قولٌ خاصٌّ، موصوفٌ في العبارة القرآنيّة بدقّةٍ وإعجازٍ، فمن بلاغة النّظم القرآنيِّ نلحظُ أنّ كلمةَ ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾ تقعُ بين ﴿زُخۡرُفَ﴾ و﴿غُرُورٗاۚ﴾، وفي ذلك ما فيه منَ الإيحاء والنّظم الدّقيقِ لتلك المنظومةِ القوليّةِ، الّتي تدُور بين قُطبَي الزّخرفةِ والغُرورِ، فهي في دَوران مُستمرٍّ، تعديلًا وتحديثًا من شيطانٍ إلى آخرَ، فالأقوالُ والإيحاءاتُ يجري عليها التّطويرُ والتّحديثُ، والتّزيينُ مُستمرٌّ من واحدٍ إلى آخرَ، فكلُّ إيحاءاتِهم تنطلقُ من مبدأ (الغُرُورِ) بالأباطيلِ والخداعِ الّتي هي دومًا بحاجة إلى إضافاتٍ جديدةٍ منَ الزُّخرفِ والتّزيين، وهكذا كُلّما ضعُفت الحُجّةُ وظهرَ الخداعُ زادتِ الشّياطينُ في تزيينِها وتعديلِها، واتّخذتْ أساليبَ أُخرى للإيحاءِ والمُراوغةِ والإقناعِ، ثمّ إنّ أساليبَ هؤُلاء الشّياطين، هي كزخارفِ الماءِ أو طرائقِه، والزّخارفُ ما يُزَخرَفُ منَ السُّفنِ، والزّخارفُ دُوَيْبّاتٌ تطيرُ على الماءِ ذواتُ أربعٍ مثلُ الذُّبابِ[1]، فهي استعارةٌ للطّرائق، والسُّبلِ المُلتويةِ المُتعرّجةِ الّتي تتّخذُها مَسلكًا إلى عُقول النّاس، وقد جاءَت كلمةُ ﴿يُوحِي﴾ بصيغة المُضارع الّذي يُفيدُ التّجدُّدَ مع الزّمن، فالإيحاءُ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، والزُّخرفُ مُستمرٌّ في شقّ سبُلِه المُلْتَوِيَةِ المُتعرّجةِ إلى قيام السّاعةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

إنّ زُخرفَ القول مُحتاجٌ إلى التّحسيناتِ والزّخارفِ، فلا يحسُنُ

(1) الخليل، العين: (زخرف).

إلّا بها، والعادةُ أن تكونَ غيرَ ظاهرةٍ للنّاظر؛ إلّا بالإمعان والتّدقيق، والمُحسّناتُ الزُّخرفيّةُ المعنويّةُ للقول ليست أصيلةً، ولكنّها دخيلةٌ ومُزيّفةٌ، فيُؤتَى بها (حتَّى يُرَى حَسَنًا ما لَيسَ بالحَسَنِ)، وإنّما يحتاجُ القولُ إلى الزّخرفِ، إذا كان غيرَ مُشتملٍ على ما يُكسبُه القبُولَ بذاته، ومعلُومٌ أنّ زخارفَ الماء طرائقُه .. وبذلك فإنّ زُخرفَ القول استعارةٌ للطّرائق الّتي يُمكنُ أن يدخُلَ منها المُتكلّمُ بفصاحةٍ ودهاءٍ، إلى عقل المُخاطَب، فيُلامسُ شَغافَ قلبه، ويُحرّكُ مواجيدَ عاطفتِه؛ بُغيةَ الوُصول إلى الغاية منَ الاستحواذ على الاهتمام، وإقناعِ الغير بما لم يكن مُقتنعًا به، ولو كان باطلًا صُراحًا، أو كُفرًا بَواحًا، بما يُشبهُ حركةَ الماء في التّغلغلِ والانسيابِ والاستطراقِ.

الالـتـجـاءُ إلى زخـارفِ الـقـولِ عند خُلوِّ المقُولِ منَ المضامِين

إعرابُ قولِه تعالى: ﴿غُرُورًا﴾ وأثرُهُ في بيانِ المعنى:

الغُرورُ: ظنُّ النّفس وقوعَ أمرٍ نافعٍ لها بمخائلَ تتوهّمُها، وهو بخلافِ ذلك أو هو غيرُ واقعٍ، ومعنى ﴿غُرُورًا﴾: خِداعًا وأخذًا على غِرّةٍ، و﴿غُرُورًا﴾ بمعنى: يغُرُّ بعضُهم بعضًا، بترويج الأَباطِيلِ، قصدَ الإضرارِ والإفسادِ والإضلالِ.

نـوعُ الإيـحـاء الّـذي تستعملُه الـشّـيـاطـينُ غـرورٌ، فـهـم غارُّون

وانتصبَ ﴿غُرُورًا﴾ على المفعول لأجله لفعل ﴿يُوحِي﴾؛ أي: يُوحون زخرفَ القولِ ليغرُّوهم[1]. وإذا جعلنا ﴿غُرُورًا﴾ مفعولًا مطلقًا من ﴿يُوحِي﴾ فهو مضمّنٌ معنى يغرّونهم غُرورًا، وهو من قَبيل المفعولِ المطلقِ المبيِّن للنّوع؛ فهو مبيّنٌ لنوع عاملِه؛ فيبيّنُ أنّ نوعَ الإيحاء غرورٌ، بخلاف ما إذا أُعربتْ حالًا فيكون المعنى منصرفًا إلى مَن يُوحي؛ أي: غارِّين.

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾:

الاسـتـئـنـافُ لـتـقـريـرِ معنىً مستقلٍّ ومرتبطٍ في آنٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ استئنافيّةٌ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.

والجملةُ بعدها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، ومعنى الكلام: ما فعلُوا ذلك؛ أي: ما عَادَوْكَ، أو ما أوحَى بعضُهُم إلى بعض زخرفَ القول بأن يكفَّهم ولا يُخَلِّيهِم وشَأنَهُم[1].

نُكتةُ المجيءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّةِ:

اللـه هـو ربُّ النّـبـيِّ ﷺ وكافلُه وناصرُه وحامِيه

في الآية السَّابقةِ أتى بلفظ الجلالة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ثمّ إنّه قال هنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، وفيما بعدَه ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، فغايرَ بين الاسمين، ونُكتة ذلك: أنّه ذكرَ قدرةَ الله في الأولى في إنزال الملائكةِ، وإحياء الموتى، وحشْرِ كلِّ شيءٍ قُبُلًا، فناسب أن يذكرَ اسمَ الله تعالى (الله)، وفي الآية اللّاحقة ذكرَ عداوتَهم للرَّسول كسائر الأنبياء ﷺ الّتي لو شاء منعهم عنها، فلا يصلون إلى المضرّة، يقتضي ذكرُه بهذا العنوان إشارةً إلى أنَّه مربيكَ في كنفِ حمايتِه، وإنّما لم يفعلْ ذلك لأمرٍ اقتضَته حكمتُه، وأمّا في الآية الأخرى فذكرَ قبلَه إشراكَهم، فناسب ذكرُه بعنوان الألوهيّة الّتي تقتضي نبذَ الإشراك[2]، ثمّ تستمرُّ الآياتُ بالتّناوب في ذكر لفظ الجلالة (الله) مرّةً و(ربّك) مرّةً؛ تناسبًا مع سياق الآيات.

غرضُ الالتفاتِ منَ التَّكلُّمِ إلى الخطَابِ:

بيانُ خصوصيَّة العنايةِ الإلهيّةِ بـعـد بـيـانِ عُـمـومِـهـا مع جميعِ الأنبياءِ

انتقلَ النَّظمُ منَ التَّكلُّم في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾، إلى الخطاب في قولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، وفيه منَ البلاغة ما أحدثه ذلك الالتفاتُ، من نقْلةٍ وجوديّةٍ كُبرى، جعلَت رسولَ الله ﷺ بمُقتضى العناية الإلهيّة، مُحصَّنًا من أعدائه من شياطين الإنس والجنّ، ناهيك عن رِفعةِ مكانتِه بين أنبياء الله ﷺ.

وسَوقُهُ لذلك الالتفات لضمير الجلالة بين قولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾ وقولِه: ﴿رَبُّكَ﴾، حيثُ التفتَ من صيغة الجمعِ بضمير العظمةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56.
(2) الخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على تفسيرِ البَيضاوِيّ: 4/114.

المتكلّم، إلى الاسم المفردِ ﴿رَبُّكَ﴾، والتفتَ مرّةً أخرى من ضمير المتكلّمِ (نَا)، إلى ضمير الغائبِ المُتّصلِ في لفظ ﴿رَبُّكَ﴾، وفي ذلك التفاتٌ ثُنائيٌّ، وفيه منَ البلاغة ما فيه من أسرارها وجمالِها، ففي ضمير الجمعِ والعظمةِ (نَا) في التّركيب ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ﴾ إشارةٌ إلى الانسجامِ مع الأنبياءِ كلِّهم، بالمُوازاة مع النّظرِ في أحوالِهم واحدًا واحدًا، فقال: ﴿لِكُلِّ نَبِيّ﴾، ثُمّ انتقلَ مُلتفتًا بالمُفرد لخطابِه للنّبيّ ﷺ، فكان ضميرُ المُفرد مُنسجمًا مع إفراد النّبيِّ ﷺ بالخطاب، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وهو انسجامٌ في السِّمة التَّعبيريّة تُوحي بالتّآلفِ اللَّفظيِّ والتَّعانُقِ السِّياقيِّ.

غرضُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَب:

تشريفُ المخاطبِ ووعدُه بالحفظِ والعنايةِ

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ ليُؤكّدَ في سياقِ الخطابِ، أنّ مَن كانَت قدرتُه سابقةً ومُهيمنةً على أحوال كُلِّ نبيٍّ ممّن سبقَ، قادرٌ من بابٍ أَولى أنْ يقيَك الأذى، ويحميَك ممّا أصابك من كيد شياطينِ الإنس والجنّ، وفيها منَ التَّشريفِ والتَّكريمِ والعنايةِ ما لا يخفَى على ذي لُبٍّ.

اللهُ يمتحنُ عبادَه بما يعلمُ أنّهُ أبلغُ في الحكمةِ

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، يعني: لو شاء ربُّك لمنعَهم من أفعالِهم وأقوالِهم، ولكنّ اللّهَ يمتحنُ عبادَه بما يعلمُ أنّهُ أبلغُ في الحكمة، وأجزلُ في الثّوابِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ بمعنى: خلِّ عنهُم، وما يجترحُون منَ القول الكاذبِ، وما يُظهرون منَ الغُرُور الخُلَّب[1]، والقولُ في معنى المشيئة من قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ كالقولِ في ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۚ﴾ [الأنعام: 107].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/476.

تقديرُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

كـلُّ أفـعـال الشياطين تحت مـشـيـئـةِ الـلـه وقُدرتِه وإرادتِه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ حذفُ مفعول المشيئة؛ والتّقديرُ: (ولو شاء ربُّك إيمانَهم)، أو تقديرُه: (ولو شاء ربُّك أن لا يفعلوا معاداةَ الأنبياء ﷺ وإيحاءَ الزّخارف)، على أنَّ الضّميرَ لمّا ذُكرَ بناءً على المشهور؛ ومن تقديرِ مفعول المشيئةِ ما دلّ عليه جوابُ (لو) بعدَه؛ ولذا قيل في تفسيره: ولو شاء ربُّك عدمَ الأمورِ المذكورةِ لا إيمانَهم كما قيل؛ فإنّ القاعدةَ المستمِرَّةَ أنّ مفعولَ المشيئةِ إنَّما يُحذفُ عند وقوعِها شرطًا. وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاء، وهو قولُه تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُۖ﴾؛ أي: ما فعلوا ما ذُكِرَ من عداوتِكَ، وإيحاءِ بعضِهم إلى بعضٍ مُزخرَفاتِ الأقاويلِ الباطلةِ، المتعلِّقةِ بأمرِكَ خاصّةً، لا بما يعُمُّهُ وأمورَ الأنبياءِ ﷺ أيضًا[1]، أو لو شاءَ اللّهُ لمنع الشّياطينَ منَ الوسوسةِ للإنس والجنِّ، ولكنّ اللّهَ يمتحنُ ما يعلمُ أنّهُ الأبلغُ في الحكمة، والأجزلُ في الثّواب، والأصلحُ للعبادِ[2].

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿فَعَلُوهُۖ﴾ المنفيَّةِ بحرفِ ﴿مَا﴾:

مـشـيـئـةُ الـلـه في اخـتـبـار المؤمنين أطلقَتِ احـتـمـالاتِ مـا اعـتـادتْـه الـشّـيـاطـينُ مـنَ الأقـوال والأفعال

الهاءُ في قوله ﴿مَا فَعَلُوهُۖ﴾ ضميرٌ عائدٌ على جميع ما فعلُوه ممّا ذكرَته الآيتان السّابقتان، وهي: (العداوةُ، أو الوحيُ، أو الزّخرفُ، أو القولُ، أو الغُرورُ)[3]، وقد تعرّض نصُّ هذه الآية، لوصف الرُّبوبيّة فضلًا عنِ الضّمير العائد إلى رسول اللّه ﷺ في قوله: (رَبُّكَ)؛ لتشريف مقامِه، وللمُبالغة في اللُّطف والتّسلية[4]، واختيارُ الفعلِ المنفيِّ؛ لبيانِ قدرةِ اللّه على نفي كلِّ ما يُتصوّرُ من أفعالهم ممَّا يقعُ تحت مشيئةِ اللّه تعالى، وهي الإرادةُ الكونيّةُ الشّاملةُ لكلِّ ما يحدثُ في الوجود، فاختيارُ مفردة (فَعَلَ) للإتيانِ على ما اعتادُوه من أفعالِ الباطلِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/176.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/284.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/625.
(4) سلامة، الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 97 - 98.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ بين: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾:

السّياقاتُ القرآنيّةُ منحَتِ المتشابهاتِ اللّفظيّةَ دلالاتٍ مُعجزةً

وقد وردَت آيتان في سُورة الأنعام منَ المُتشابه اللّفظيّ، هما قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137]، والسّرُّ في اختلافهما؛ أنّه في الأُولى ذكّرهم بما سبق لهُم في الأزل، حتّى لا يُجديَ عليهم شيءٌ، ولا ينفعَهم تَذكارٌ؛ لقوله قبْلَها: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، وذلك أنّهُ تلطّفٌ بنبيّه بذكر ربُوبيّته، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ تأنيسًا له، وتأنيسًا لأُمّته بأُنْسِه، وأوردَ الاسمَ الأعظمَ في الثّانية، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لعدم وجودِ الحيثياتِ الّتي في الآية الأولى[1]؛ إذ تضمّنَ السّياقُ ذكرَ تجاوزاتِهم على الذّات الإلهيّةِ عُدوانًا وشركًا صريحًا: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136]، فاقتضى ذلك ذكرَ اسمِ اللّه في قولِه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: 137].

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

الإعراضُ عنِ المشركين هو إعراضٌ عن غرورهم لا عن موعظتِهم ودعوتِهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ فصيحةٌ، تدُلُّ على مَحذوفٍ، فتُفصِحُ عنه، والتّقديرُ: فإذا كانوا مُصرِّين على ما هم عليه منَ الضّلالةِ؛ فذرْهُم وما يفترون، أو هي فاءُ التّفريع.

ومُفادُ التّفريع أمرُ الرّسول بتركِهم، وهو لونٌ منَ التّذييل[2]، ومعلومٌ أنّ التّركَ إعراضٌ عنِ الاهتمام بغرُورهم، وليس إعراضًا عن وعظِهم ودعوتِهم، كما تقدَّم في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: أعرض عن تكذيبِهم، وما يختلقون مِن كذبٍ وزورٍ، ولكنْ تابِعْ دعوتَهم إلى دين اللّه.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 469 - 490.
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/358.

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

الوعيدُ والتّهديدُ والتّحذيرُ للمشركين الّذين يتّبعون شياطينَ الإنس والجنّ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يتضمّنُ الوعيدَ والتّهديدَ، ومُفادُه: اتركْهُم وما يفترُون من تكذيبك، والغرضُ منه كذلك التّحذيرُ للمشركين الّذين يتّبعون شياطينَ الإنس والجنّ في قولِهمُ الباطلَ والزّورَ على اللّه تعالى.

فاللّهُ يأمرُ نبيَّه محمّدًا ﷺ أن يتركَهم في ضلالهم وشِركهم، وأن لا يباليَ بهم؛ فإنَّ اللّهَ سيحاسبُهم على ما فعلوا وقالوا، وسيَجزيهم العذابَ الشّديدَ.

وقد قال بعضُ المُفسّرين: إنَّ هذا الأمرَ فيه مَعْنى التّرك؛ أي: استغنِ عنهم بتركِهم، ولا تحزنْ عليهم، فإنَّ اللّهَ هو المستغنِي عن خلقه، ولا يضرُّه شيءٌ من كُفرِهم أو شِركهم[1].

بلاغةُ اختيارِ لفظِ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

الأمرُ فيه بمعنى التّركِ والاستغناءِ عنهم

من بلاغة اختيارِ مُفردةِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنّ معناها يُستعمَلُ في ترك الشّيء غيرَ آبهٍ به؛ يُقال: فلان يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُه لقلّةِ اعتدادِه به.

نوعُ الواو ومعناها في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

إمّا أن تكونَ بمعنى (مع)، وإمّا أن تكونَ عاطفةً

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إمّا أن تكونَ بمعنى (مع)، وهي تفيدُ المصاحبةَ والاقترانَ، فتفيدُ اقترانَ هؤلاء المعاندين بالافتراء، فهم مصاحِبون للافتراء أينما مضَوا أو حلُّوا، فجاء الأمرُ بتركِهم وعدمِ المُبالاة بهم[2].

وإمّا أن تكونَ عاطفةً، وهي حرفُ عطفٍ للجمعِ، فلا يكونُ تركُهم حصَلَ قبل ترْكِ ما يفترون، فجاء الأمرُ بتركِهم جميعًا، جاء في شرح الرّضيِّ على الكافية: عن قولِه: (فالواو للجمع مُطلَقًا): معنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/503، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/68، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/210.

(2) الخفاجيّ، حاشيةُ الشّهابِ على تفسيرِ البيضاويّ: 4/114.

المُطلقِ: أنّه يحتملُ من كليهما في زمانٍ واحدٍ، أو أن يكونَ حصلَ بأحدِهما قبل الآخرِ[1].

نوعُ ﴿وَمَا﴾ ومعناهَا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

معنى الموصوليّةِ والمصدريّةِ مرادان على الخصوصِ والعُمومِ

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إمَّا أن تكونَ اسمًا موصولًا فيكون المعنى: فذرْهُم والّذي يفترون باعتبارِه معلومًا للمخاطَب، وإمَّا أن تكونَ حرفًا مصدريًّا فيكون المعنى: فذرْهم وافتراءَهم، وذلك بحملِه على العمومِ، ويحتملُ الكلامُ المعنيين؛ أي: ذرْهم والّذي يفترونه منَ الشِّرك، وعمومَ افترائهم.

وتقعُ (ما) على ذواتِ ما لا يعقلُ، وعلى صفاتِ مَن يعقلُ؛ وهي في الآية ممّا وقعَ على صفات مَن يعقلُ. وفائدةُ الموصول أنّه وصفهم بصفاتٍ معلومةٍ فيهم؛ استهجانًا بما يفعلونَه، ويقولونَه، ويتّصفون به.

و﴿وَمَا﴾ تفيدُ الحالَ؛ أي: أنّ حالَ الافتراء مُتمثِّلٌ بحالِهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءاتُ متجدِّدةٌ في زمنِ الأنبياء وفي زمانِ غيرِهم منَ العلماء

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع تجدُّدُ الفعلِ مع الزّمن؛ والاستمرارُ عليه؛ بمعنى تجدُّدِ أساليبِ الافتراءِ، وتطويرِ القدرةِ على الابتكار فيها، وتعزيزِ أصولِها ودعم فاعليها، وما إلى ذلك ممَّا يضمنُ ديمومةَ ذلك الافتراءِ وتجدُّدَه. ويمكن أن يكونَ المضارعُ أفاد الدّلالةَ على الحقيقة من حيث هي غيرُ مقيَّدةٍ بزمنٍ، فالحقيقةُ أنّهم يفترون على اللّه الكذبَ، ويكونُ موجَّهًا إلى الأنبياءِ في زمانِهم، وإلى أتباعِهم في كلِّ زمانٍ، وعليه فتنطبق الآيةُ على التَّحقيقِ على جميعِ مَن يُفترَى عليه منَ الدُّعاةِ والأولياءِ والعلماءِ إلى قيامِ السَّاعةِ.

نُكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

حذفَ مفعولَ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ إيجازًا؛ فالحذفُ من أهمّ دواعِي

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/403.

الإيجازِ في العبارة والتّوسّعِ والشّمولِ في المعاني؛ إذ أفادَ هذا الإيجازُ شمولَ عمومِ ما يَطرأُ مِن افتراءاتِ هؤلاء المُعاندين، ومَن سيأتي بعدَهم، ممّن يفترون على اللّه وعلى أنبيائِه ورسالاتِه، فجاء الأمرُ توجيهًا للرَّسول أن يذرَ هؤلاء وافتراءاتِهم وأباطيلَهم.

الحذفُ من أهمِّ دواعي الإيجازِ في العبارةِ والتّوسّعِ في المعنى

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوذر والتّرك:

وذرَ: يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُه لقلّة اعتدادِه به، ولم يُستعملْ ماضِيه، ووردَ منه المضارع قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، والأمرُ كقوله: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278] إلى أمثالِه. وتخصيصُه في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: 234]، ولم يقل: يتركون ويخلّفون، فإنّه يذكرُ فيما بعد هذا الكتابِ إن شاء اللّه. والوَذَرَةُ: قطعةٌ منَ اللّحم، وتسميتُها بذلك لقلّةِ الاعتدادِ بها[1].

الوذرُ الاستغناءُ عنِ الشّيء الّذي لا يُعتدُّ به، والتّركُ أعمُّ منه وأشملُ

تَركُ الشّيء: رفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمنَ الأوّل: ﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]، ومنَ الثّاني: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه: تَركَةُ فلان لِمَا يخلِّفه بعد موته، وقد يُقال في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما تركتُهُ كذا، أو يجري مجرى جعلته كذا، نحو: تركت فلانًا وحيدًا. فيكون الوذرُ في الأمر الّذي لا يستحقُّ الاعتدادَ بِهِ؛ على خلاف التّرك الّذي يمكن أن يكونَ في الأمور العظيمة، أو الّتي تستحقُّ الاعتدادَ بها.

ومن هنا ناسبَ لفظُ الآية السّياقَ الكريمَ بترك المشركين وعدم الالتفاتِ إليهم؛ لكونِهم لا يستحقّون الاهتمامَ منَ النّبيِّ ﷺ، لِمَا اتّصفوا به منَ العَمَهِ والمكابرةِ والإصرارِ على كُفرهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (وذر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»